[1]وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمّة لخضر* الوادي
معهد العلوم الإسلامية
قسم الشريعة

المحاضرة الثانية

محاضرات في مقياس: التفسير الموضوعي

السنة الثالثة فقه وأصوله

د. الصادق ذهب

الموسم الجامعي: 2023/2022م

المطلب الأول:

التفسير الموضوعي: تعريفه وأهميته وعلاقته بأنواع التفسير الأخرى

الفرع الأول: تعريف التفسير الموضوعي

يتألف مصطلح التفسير الموضوعي من جزأين رُكّبا تركيباً وصفيّاً، وسنقتصر هنا على تعريف الجزء الثاني "الموضوعي"؛ لأنّ مصطلح "التفسير" سبق أن حدّدنا معالمه، ثم بعد ذلك نُعرّف المصطلح المركب منهما على النحو الآتي:

أوّلا– تعريف مصطلح الموضوعي لغةً واصطلاحاً

1– تعريف مصطلح الموضوعي لغةً:

جذره الثلاثي: وضع، و الوضع لغة: ضِدُّ الرَّفْعِ، وضَعَه يَضَعُه وَضْعاً ومَوْضُوعاً، وجاء في المقاييس: الْوَاوُ وَالضَّادُ وَالْعَيْنُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْخَفْضِ لِلشَّيْءِ وَحَطِّهِ. وَوَضَعْتُهُ بِالْأَرْضِ وَضْعًا، وَوَضَعَتِ الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا... [2]. وهذا الوضع مادّي حسّي.

وقد يرد لفظ الوضع معنويّا، فيقال: الضَّعةُ والضِّعةُ: خِلاف الرِّفْعةِ فِي القَدْرِ، وَرَجُلٌ وَضِيعٌ، فهُوَ ضِدُّ الشَّرِيفِ [3].

وا لموضوع لغة: من الوضع، وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان. ويقال: وضَعَ الشيءَ وَضْعاً: اخْتَلَقَه[4].

وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي ؛ لأنّ المفسر يرتبط بمعنى معين اختلقه من فكره وذهنه لا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي التزم به[5].

2– مصطلح الموضوعي في الاصطلاح:

عرّفه أهل الاصطلاح بأنّه: محلّ العرض المختص به، وقيل: هو الأمر الموجود في الذهن[6].

و عرّفه أهل التفسير بأنه: "قضية، أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة، أو السلوك الاجتماعي، أو مظاهر الكون التي تعرّضت لها آيات القرآن الكريم"[7] .

3– تعريف التفسير الموضوعي كمركّب:

لم يعرف علماء القرآن قبل القرن العشرين اصطلاح: (الموضوعي) كصفة لمنهج أو طريقة خاصة في التفسير، ولكن هذا الاصطلاح لم يلبث أن دخل علوم القرآن والتفسير أسوة بكثير من الاصطلاحات.

وقد يتبادر للذهن أنّ المقصود بمصطلح (الموضوعي) ما يقابل (الذاتي)، أي المتحيّز، بمعناه القيَمي الخاص، والموضوعية هنا بمعنى النزاهة والأمانة والحيادية، وهي بهذا لا تُطلق على التفسير

الموضوعي لوحده بل تشمل كل أنواع التفسير الأخرى.

إذا عرفنا ذلك فما المقصود إذاً بالتفسير الموضوعي؟

أصبح هذا المركب (التفسير الموضوعي) عَلماً على أحد أنواع التفسير، وقد تناوله الباحثون بالدراسة والبحث فوضعوا له عدة تعريفات، ولكن عند النظر في تعاريفهم يتبيّن أنّهم انقسموا إلى قسمين، قسم عرّف التفسير الموضوعي باعتبار المنهج وطريقة البحث فيه، وأمّا القسم الآخر ذهب إلى بيان مفهوم التفسير الموضوعي، ونذكر من القسمين ما يلي:

أ- التعريف باعتبار المنهج:

- التفسير الموضوعي هو: بيان الموضوع الواحد من خلال عدة آيات، وإن اختلفت عبارات تلك الآيات وتعددت أماكنها مع الكشف عن أطراف وحدود ذلك الموضوع، حتى يستوعب جميع نواحيه، وإن أعوزه ذلك لجأ إلى التّعرّض لبعض الأحاديث المناسبة للمقام لتزيدها إيضاحاً وبيانا[8].
- عَرّفهُ الأستاذ عبد الستار فتح الله سعيد بقوله: هو علمٌ يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة معنى وغايةً، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة، لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برابط جامع[9].
- عرّفه عبد المتعال الجبري بأنّه: أن تُجمع الآيات التي في الموضوع الواحد، ولو كانت في سور شتى، وتؤخذ منها العبرة[10].
- وعُرّفَ بأنه: جمع الآيات المتفرّقة في سور القرآن المتعلّقة بالموضوع الواحد لفظا أو حكما، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية[11].

الملاحظ على هذه التعريفات كما أشرنا آنفا أنها وقعت في خلط بين تحديد ماهية التفسير الموضوعي، وبين شرح منهج وطريقة التفسير الموضوعي.

ب- التعريف باعتبار الماهية والمفهوم.

من التعريفات التي نذكرها تحت هذا الاعتبار ما يلي:

- عَرّفهُ الأستاذ مصطفى مسلم بقوله: هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر[12].
- وعُرّف كذلك بأنه: منهج مستحدث في تفسير القرآن يوظَّف لسبر أغوار الموضوع من خلال القرآن كله أو سورة منه للخروج بتصوّر حوله أو نظرية فيه[13].

- وعُرّف أيضا بأنه: البحث عن القضايا التي عرض لها القرآن في سوره المختلفة ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلّق بالموضوع العام الذي نبحثه، لنحقق الهدف وهو الوحدة الموضوعية للقرآن[14].

يلاحظ على التعريفات الثلاث الأخيرة ما يلي :

– ذُكر في التعريف الأوّل قوله: "حسب المقاصد القرآنية"، فهل هذه المقاصد التي ذكرها وُجدت قبل عمليّة التفسير، أم هي نتاج لعملية التفسير؟ طبعا فالمقاصد القرآنية تُعرف وتُكشف بواسطة التفسير، وليس قبله. وقد أشار صاحب التعريف إلى نوعين من الأنواع الثلاثة للتفسير الموضوعي.

– وذُكر في التّعريف الآخر قوله: "منهج مستحدث"، وهذا قيد فيه إشكال؛ لأن هذا المنهج سيتقادم بمرور الزمن.

– وأمّا التعريف الأخير فقال صاحبه: "لنحقق الهدف وهو الوحدة الموضوعيّة"، ويلاحظ بأنه جعل الهدف من التفسير الموضوعي هو الوحدة الموضوعية، وهذا غير صحيح بل هو من أهدافه المتعدّدة.

وعليه فالتعريف الذي نقترحه للتفسير الموضوعي ويكون جامعا للعناصر المشكلة لمفهومه هو: **الكشف الكليّ عن مراد الله في قضيّة قرآنيّة بحسب الطاقة البشرية**[15].

يفهم من هذا التعريف كما هو ظاهر أنّ التفسير الموضوعي يقوم على ركيزتين هما:

1– (الكليّ): ويُعنى بها الرؤية الكلّية المتحصّلة من جزئيّات الموضوع القرآني، وهذا ما يميّز التفسير الموضوعي عن غيره من ألوان التفسير الأخرى.

2– (قضيّة): ويُقصد بها الموضوع، وهو مجموعة الأفكار والمعاني المنبثقة من الآيات القرآنية، ولا يدخل فيها ما يُعنى بالألفاظ والتراكيب اللّفظيّة إلاّ ما كان منها خادما لهذه المعاني الكليّة المدروسة.

كما يخرج من هذا التّعريف الكشف عن مراد الله في شأن معيّن من خلال آية واحدة؛ لأنّ المعنى المراد في هذه الآية قد لا يكون المقصود أو المراد من القضيّة عموما[16].

وأمّا قيد (بحسب الطاقة البشريّة)، فيتأكّد به أنّ هذا التفسير الموضوعي للقرآن إنما هو اجتهاد بشريّ قد يصيب صاحبه أو يخطئ.

الفرع الثاني: أهمية التفسير الموضوعي

تكاثفت جهود الدارسين في بيان وإبراز أهميّة التفسير الموضوعي، وما يترتّب عن هذا اللّون من أثر تميّز به عن غيره من ألوان التفسير الأخرى، فجاء بيان أهمية التفسير الموضوعي منهم متقاربا، لذا سوف نورد بعضها على سبيل الإجمال:

- **معرفة منهج القرآن وهديه في مواجهة المشكلات المعاصرة:**

المسلمون في هذا العصر يعانون من مشكلات وتحديات خطيرة وعديدة، ومن المسلَّم به أنّ حلّ هذه المشكلات أساسا في القرآن الكريم ؛ لذلك يؤدي البحث في التفسير الموضوعي إلى إيجاد الحلول القرآنية المناسبة لمشاكلهم العديدة.

- **التفسير الموضوعي يساهم في الوقوف أمام الأعداء وتفنيد أفكارهم الجاهلية:**

لا يمكن الوقوف والتصدي للأفكار والمغالطات المنحرفة والشبهات التي ينشرها أعداء الإسلام من المستشرقين والحداثيين ومن نحا نحوهم والمتعلقة بمعاني وموضوعات النص القرآني إلا بالتفسير الموضوعيّ عن طريق إظهار تماسك وترابط آيات القرآن الكريم التي نزلت في أماكن وأزمنة متفرقة.

- **تحقيق وتحرير كثير من المصطلحات، والمسائل الخلافية:**

يساهم التفسير الموضوعي في التصدي لحرب المصطلحات والشعارات التي يصدّرها أعداء الإسلام لنا، ففي كل حين يخرجون لنا مصطلحا جديدا ويُلبسونه الثوب الذي يريدون، ومن ذلك مصطلح: الإرهاب،... فمثل هذه المصطلحات تحتاج منا لعرضها على ميزان القرآن عن طريق الدراسة الموضوعية المصطلحية وتحرير الاستخدام الصحيح له.

- **إظهار حيويّة القرآن الكريم:**

فكثير من الباحثين ينظرون إلى موضوعات القرآن على أنّها موضوعات قد استُهلكت قبل خمسة عشر قرنا، فيأتي التفسير الموضوعي بعرض هذه القضايا والموضوعات بصورة علمية واقعية تناقش قضايا حيّة، وتهتمّ بمجتمع حيّ متحرّك.

- **مواكبة النهضة العلمية التي يشهدها عصرنا في شتى المجالات والعلوم:**

التفسير الموضوعي يساعدنا على مواكبة النهضة السريعة التي يشهدها عصرنا في شتى العلوم، كالنظريات والأبحاث المختلفة التي تطلع علينا في كل يوم، كعلم الحشرات، النبات، البحار، الماء، الأنهار، الشمس، .... ونرى ماذا قال القرآن الكريم فيها (الإعجاز العلمي).

- **إبراز الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، ودفع التعارض:**

الوحدة الموضوعية لسور وآيات القرآن الكريم تُظهر لنا بجلاء ووضوح أوجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم، فلا نجد تناقضا بين الآيات ... رغم تعدد الموضوعات، فدائما هناك رابط يربطها قال تعالى: **(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)**.

- **تيسير الوصول إلى موضوعات القرآن للباحثين والدعاة والمتدبرين:**

التفسير الموضوعي يمكّن هؤلاء من الإحاطة التامّة بأبعاد وجوانب الموضوع المراد بالقدر الذي يمكّن كل واحد منهم من تحقيق مقصوده والوصول إلى هدفه.

- **التفسير الموضوعي يوسع من دلالات ومضامين الآيات القرآنية:**

جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد في مقام واحد، يحكم بعضها على بعض ويفسر بعضها بعضا، هذا الأمر يعطي الباحث آفاقا جديدة من المعاني والدلالات القرآنية، التي قد لا يلتفت لها السابقون من المفسرين، ولا يجدها القارئ في كتب التفسير الموضعي.

الفرع الثالث: علاقة التفسير الموضوعي بأساليب التفسير الأخرى

الفرق بين التفسير الموضعي والموضوعي:

فرّق العلماء بين التفسير الموضوعي، والتفسير التحليلي (الموضعي)، بعدة فروق نذكر منها:

- المفسر في التفسير الموضعي ينظر في القرآن وسوره وآياته يبدأ منه، ويبقى معه، وينتهي به، يجلس أمام القرآن، ويتلقى منه، ويسمع إليه، ويسجل ما يتلقاه.

بينما المفسر في التفسير الموضوعي يبدأ من الواقع الذي يعيش فيه، ويدرك حاجات الأمة والإنسانية في عصره، على مختلف جوانبها الفكرية والنظرية والاقتصادية والسياسية ....، ثم يجلس أمام القرآن، ويحاول أن يسأله ويستنطقه، ويطلب منه رأيه الإيجابي الصادق الصائب في القضايا والموضوعات، وبعدما يتلقى عن القرآن الإجابات العلمية الموضوعية الصائبة، يقوم بترتيبها ويقدمها لأمته ليصلحوا واقعهم على أساسها...

- المفسر في التفسير الموضعي التحليلي يكتفي بتحليل الآيات وجملها وتركيبها واستخراج دلالتها التفصيلية الجزئية.

بينما المفسر في التفسير الموضوعي يجمع بين هذه المدلولات، وينسّق بينها، ويصل بين جزئياتها المفردة، وبين الكل الجامع لها، ويستخرج من موضوعها نظرية قرآنية واقعية متكاملة.

- المفسر في التفسير الموضعي يقدم للمسلمين علما تفسيريا نظريا، ومعلومات تفسيرية ثقافية، ومجالات علمية متنوعة في العقيدة والحديث واللغة والبلاغة والنحو والفقه وغير ذلك.

بينما المفسر في التفسير الموضوعي يقدم للمسلمين فكرا وحضارة وحلولا قرآنية لمشكلات واقعية، وحقائق قرآنية عن قضايا اجتماعية وحضارية.

- المفسر في التفسير الموضعي التحليلي يخدم الآية والجملة والمفردة القرآنية، فإن التفسير الموضوعي يخدم مهمة القرآن ورسالته ووظيفته في حياة المسلمين، ويزيد من تفاعل المسلمين مع القرآن، وقناعتهم بحقائقه، ودعوتهم إليه.

أي أنّ القرآن هو الذي يتناسب مع مقاصد القرآن وأوّلياته، ومنطلقاته الأساسية، ويخدمها، ويُحسن عرضها والدعوة إليها.

– التفسير الموضعي والموضوعي مرحلتان متكاملتان

نقصد بالتفسير الموضعي التفسير التحليلي ، فالذي يخوض في التفسير الموضوعي بدون علم بالتفسير الموضعي، سيقع لا محالة في الخطأ، وسيحرّف معاني وموضوعات القرآن الكريم، فالتفسير الموضعي هو شرط لابد منه في التفسير الموضوعي، وهو بمثابة التمهيد، وعلى هذا لابد أن يسبقه.

فالتفسير الموضعي والموضوعي مرحلتان متكاملتان، وخطوتان متتابعتان متدرّجتان كما سنرى في خطوات السير في التفسير الموضوعي في المحاضرات القادمة.

فالباحث في التفسير الموضوعي بعد أن يجمع آيات موضوعه المختلفة، لابد أن يطّلع على تفسيرها من أمهات كتب التفسير الموضعي؛ كتفسير الطبري، والزمخشري، والرازي، وابن كثير ...، وذلك حتى يكون فهمه للآيات وإيحاءاتها صائبا، وتدبره لها صحيحا[17]..

يقول الشيخ الصدر بعد أن بيّن أفضلية التفسير الموضوعي على التفسير التحليلي، وفائدة وأهمية هذا اللون من ألوان التفسير، والحاجة الماسة له: "إذن: فالتفسير الموضوعي في المقام هو أفضل الاتجاهين في التفسير.

إلا أن هذا لا ينبغي أن يكون المقصود منه الاستغناء عن التفسير التجزيئي، هذه الأفضلية لا تعني استبدال اتجاه باتجاه، وطرح التفسير التجزيئي رأسا، والأخذ بالتفسير الموضوعي.

وإنما إضافة اتجاه إلى اتجاه ؛ لأن التفسير الموضوعي ليس إلا خطوة إلى الأمام بالنسبة إلى التفسير التجزيئي، ولا معنى للاستغناء عن التفسير التجزيئي باتجاه الموضوعي.

إذن فالمسألة هنا ليست مسألة استبدال، وإنما مسألة ضم الاتجاه الموضوعي في التفسير إلى الاتجاه التجزيئي، يعني افتراض خطوتين: خطوة هي التفسير التجزيئي، وخطوة أخرى هي

التفسير الموضوعي..."[18].

علاقة التفسير الموضوعي بأنواع التفسير الأخرى:

جميع أساليب التفسير متكاملة متعاضدة لا يمكن الفصل بينها؛ فالتفسير التحليلي لا يستغني عنه الباحث في التفسير الإجمالي أو المقارن أو الموضوعي، وذلك لأن التفسير التحليلي على معرفة دلالة الكلمة اللغوية ودلالتها الشرعية، والتعرف على الرابط بين الكلمات في الجملة وبين الجمل في الآية وبين الآيات في السورة، وكذلك التعرف على القراءات وأثرها على دلالة الآية، ووجوه الإعراب ودورها في الأساليب البيانية وإعجاز القرآن الكريم...وغيرها من الوجوه التي تساعد على إجلاء المعنى وتوضيح المراد.

فالذي يريد تفسير الآيات **تفسيرًا إجماليًا** لا يستطيع أن يعبر عن موضوع الآيات التي يريد التعبير عنها بأسلوبه الخاص لتقريب المعاني وإبراز جوانب الهداية منها ما لم يلم بتفصيلات ما تقدم من أمور التفسير التحليلي لاستجلاء المعنى المراد ثم صياغته بأسلوب يتناسب مع المدارك الثقافية للمخاطبين.

وكذلك بالنسبة لمن يتناول الآيات وتفسيرها بأسلوب **التفسير المقارن** ، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، لا بد أن يحيط بأقوال المفسرين الذين كتبوا في تفسير الآيات ليدرك المفسر الذي لم يخرج عن روح النص والغرض الأساسي من الآيات الكريمة، عن المفسر الذي تعسف في تأويل هذه الآيات وحمّلها ما لم تحتمل، أو لم يدرك المرمى اللغوي للكلمة القرآنية فانحرف بها عن دلالتها وأوّلها غير تأويلها الصحيح، فأبعد في التأويل ووقع في محاذير. ولكي يحكم على صواب منهج المفسر أو خطئه، وإجادته في تفسيره أو تخبطه فيه لا بد أن يكون على دراية وافية بمعاني الآيات الكريمة فلا بد له من الرجوع إلى التفسير التحليلي، وقد يستخدم للتعبير عن حكمه على التفاسير التي يقارن بينها أسلوب التفسير الإجمالي للآيات.

أما الباحث **في التفسير الموضوعي** فاعتماده على جميع الأنواع المتقدمة من التفسير أمر أساسي في كتابته ومنهجه؛ فلا غنى له عن أحدها، ولهذا على الباحث في هذا النوع من التفسير أن يكون على مستوى رفيع من الإحاطة بأنواع التفسير الأخرى ؛ لأنها هي اللبنات الأولى والمادة الأولية التي يريد إقامة بنيان تفسيره الموضوعي عليها.

– عندما يجمع المفسر الآيات المتعلقة بموضوع من الموضوعات، لا بد من الرجوع إلى دلالات الكلمات التي تعبر عن هذا الموضوع بشكل صريح أو تشير إليه إشارة أو يكون الموضوع من لوازم هذه اللفظة أو العبارة، أو نتيجة من نتائج استخدام هذه العبارة.

وكثيرًا ما تستخدم الجملة أو الآية الواحدة في موضوعين مختلفين ويكون لها دلالة مختلفة حسب الموضوع وحسب السياق والسياق عن دلالة الموضع الآخر.

فلكي يدرك الباحث في هذا اللون من التفسير -أعني التفسير الموضوعي- لا بد أن يكون مدركًا إدراكًا تامًا لأقوال المفسرين الذين كتبوا في تحليل هذه الآيات.

- وكثيرًا ما تتباين أقوال المفسرين الذين كتبوا في تحليل النص القرآني بحيث لا يمكن الجمع بينها، والآيات القرآنية حمّالة للوجوه المتعددة فلا بد للمفسر الذي يكتب في موضوع ما، ووجد هذه الأقوال في تفسير آية تتعلق بموضوعه، لا بد من وقفة متأنية دقيقة، ونظرات ثاقبة للترجيح بين هذه الأقوال ومعرفة المصيب منها وغير المصيب، وليختار القول المناسب لموضوعه من هذه الأقوال بغية توضيح عناصر الموضوع والربط بين الأساليب القرآنية في أداء المعنى، وبالتالي للوصول إلى الهدايات القرآنية المتعلقة بالموضوع مجال البحث. وهذا هو **التفسير المقارن**.

- ولمّا كان الموضوع الذي يتناوله الباحث في التفسير الموضوعي حسب أحد منهجين لا ثالث لهما:

- تناول موضوع من خلال القرآن الكريم كله.

فعندئذ لا بد له من تقسيم الموضوع إلى عناصر حسب تناول الآيات الكريمة لها، وللتعبير عن العنصر الذي استنبطه من خلال الآيات، ولا مناص من اللجوء إلى التفسير الإجمالي ليقرر هذا العنصر ويوضحه ويشرحه ويسوق له الأدلة.

- أو تناول الموضوع من خلال سورة قرآنية معينة.

وعندئذ لا بد له من تقسيم السورة إلى مقاطع حسب ترتيب الآيات في السورة أو حسب تسلسل عناصر الموضوع أو الهدف الأساسي في السورة أو المحور الذي تدور عليه السورة.

وللتعبير عن مضامين هذه المقاطع وتوضيح الهدايات القرآنية منها ثم ربطها بالهدف الأساسي للسورة وضمن الإطار الذي تعرض السورة فيه هذا الهدف أو الأهداف.

لا بد للباحث من اللجوء أيضًا إلى التفسير الإجمالي في طريقة عرضه لهذه الأهداف وربط المقاطع كلها بمحور السورة لإبراز الهدف الأساسي فيها.

إذن نستنتج مما تقدم:

- أنّ أنواع التفسير الأخرى هي اللبنات التي يقوم عليها بناء التفسير الموضوعي.
- التفسير الموضوعي ثمرة الأنواع كلها.

- التفسير الموضوعي مرحلة متأخرة عن كل الأنواع.
- أنواع التفسير متداخلة متساندة، لا يستغني المفسر لنوع منها عن الأنواع الأخرى[19].